

النظام الصحي في المناطق المنجمية في الجزائر: من الرفاه إلى الهشاشة

-القنادسة والونزة أنموذجا-

The Health System in Mining Areas in Algeria: from Welfare to Fragility - Kendassa and Ouenza as a case study-

مصطفى بوضبوعه^{1*}

Mostefa BOUSBOUA^{1*}

¹ جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، mostefa.bousboua@univ-annaba.dz

تاريخ النشر: 2025/06/05

تاريخ القبول: 2025/05/08

تاريخ الإرسال: 2025/02/08

Abstract:

This study aims to determine the impact of mining discoveries on the health system in Algeria and takes the regions of Kendassa and Ouenza as a case study. The study shows that the discoveries of mines during colonization led to the creation of mining towns for Europeans, in which the natives benefited from some aspects of welfare. Although, mining in Kendassa ceased after independence, mining waste affects inhabitants and many former miners still suffer from respiratory system diseases. In Ouanza, mining continues and creates a distorted relationship between the environment and the population, and mining diseases persist in the region. This study argues that the biological view of disease on the one hand and the marginalization of these areas borders on the other hand have led to the inability to correct the relationship between inhabitants and their environment in mining areas.

Keywords : colonialism, fragility, mines, health system, welfare.

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحديد أثر الاكتشافات المنجمية على النظام الصحي في الجزائر وتتخذ منطقتي القنادسة والونزة كدراسة حالة. تظهر الدراسة أن اكتشافات المناجم خلال مرحلة الاستعمار أدت إلى إنشاء مدن منجمية للأوروبيين، حيث تمتع الأصليون ببعض جوانب الرفاهية، التي سرعان ما تحولت إلى مظاهر للهشاشة بعد الاستقلال حيث لا تزال تؤثر نفايات المناجم على الساكنة مع استمرار معاناة العديد من عمال المناجم السابقين من أمراض الجهاز التنفسي. في الونزة، لا يزال الاستغلال المنجمي يشوه العلاقة بين البيئة والساكنة، مع استمرار أمراض المناجم لدى العمال في المنطقة. تؤكد الدراسة أن النظرة البيولوجية للمرض وتهتميش هذه المناطق الحدودية من أدى إلى عدم القدرة على تصحيح العلاقة بين الساكنة وبيئتهم في المناطق المنجمية.

الكلمات المفتاحية: الرفاه، الهشاشة، النظام الصحي، المناجم، الاستعمار.

* المؤلف المرسّل.

1. مقدمة

أدى التغير في الهياكل الاقتصادية في أوروبا والانتقال من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي إلى خلق نماذج من الإنتاج وإعادة التوزيع سعت إلى بيع فوائض الإنتاج والبحث اليائس عن الموارد الأولية، مما أدى إلى منافسة محمومة بين القوى الأوروبية على استعمار البلدان الأفريقية باسم المهمة الحضارية أو لاستغلال مواردها الطبيعية، في بعض الحالات لم يقتصر سعي القوى الاستعمارية على استغلال المواد وإنما تعداه إلى إبادة الأصلايين Natives. في الجزائر عمل الاستعمار الفرنسي في بداياته على إبادة الأصلايين، حيث كان نموذج الاستعمار الاستيطاني في أمريكا الشمالية حاضرا في المخيال الفرنسي، ولكن مقاومة الأصلايين حالت دون نجاح فرنسا في تحقيق هدفها وهو ما أدى إلى التحول في طبيعة الاستعمار الفرنسي من استعمار استيطاني إلى استعمار كلاسيكي يهدف إلى استغلال موارد الجزائر.

اكتشاف الموارد الأولية في الجزائر وتزايد الحاجة إليها خلال الحربين العالمية الأولى والثانية، ساهم في ارتفاع وتيرة استغلال موارد البلاد، وأدى إلى إنشاء مناطق قائمة على الصناعات المنجمية حولتها من مناطق شبه خالية إلى مناطق عامرة بالحياة، لقد ساهمت شركات الاستغلال المنجمي في خلق فرص للعمل وبناء مراكز صحية ومؤسسات تعليمية استفادة منها المجتمعات المحلية، إلا أن نضوب المناجم وتلوث البيئة، أدى إلى انتقال هذه المجتمعات من الرفاه إلى الهشاشة.

أثر الاستغلال المنجمي على طبيعة الممارسات الصحية في المناطق المنجمية، حيث أن تزايد عدد العمال داخل المناجم خلق بيئات تسهل انتقال الأمراض بين القوى العاملة وأدى إلى انتشار أمراض على غرار السليكوز. كانت الممارسات الصحية في معظمها ترتبط بمعالجة الآثار الناجمة عن هذا الاستغلال والتكفل بالمرضى الذي يتعرضون للحوادث داخل

المناجم. من هذا المنطق تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على طبيعة الأنظمة الصحية التي تم إنشاؤها خلال فترة الاستعمار الفرنسي في المناطق المنجمية والتي شكلت استجابة للأمراض المستجدة التي نجمت عن استغلال المناجم وتتخذ من منطقتي القنادسة ببشار والونزة في تبسة نموذجا للدراسة، وهذا بالمقارنة مع الممارسات الطبية والنظم الصحية في مرحلة ما بعد الاستعمار والاستجابة للهشاشة البيئية كمخلفات استعمارية في المناطق المنجمية، تجادل هذه الدراسة أن الترتيبات السوسيو-ديمغرافية والتنمية ساهمت في تفاقم المشاكل الصحية، حيث أن دولة الراعية التي تم إنشاؤها عقب الاستعمار كرست ثنائية المركز المهيكل العاصمة والمدن الكبرى والأطراف المهمشة المدن الداخلية والحدودية، كما أن النظرية البيولوجية للصحة انتقاء المرض فاقمت هذه الهشاشة. تعتمد هذه الدراسة على إجراء مقابلات شبه منظمة مع سكان المناطق المنجمية وتنقسم العينة إلى عينة قصدية تتضمن عمال المناجم في القنادسة والونزة وعينة عشوائية لتحديد تأثيرات الهشاشة البيئية على ساكنة المنطقة

2. الممارسات الطبية الكولونيالية في الجزائر: من الطب الاستيطاني إلى الطب الإمبريالي

اعتمدت فرنسا في سياستها الاستعمارية للجزائر على مجموعة من المبررات التي سبقت احتلالها، وبطبيعة الحال فإن حادثة المروحة الشهيرة بين الداي حسين والقنصل الفرنسي بيار دوفال لم تكن سوى ذريعة لتبرير الاحتلال، حيث سبقت الحادثة حملات دعائية استهدفت تبرير الاستعمار الفرنسي ورسمت بالنتيجة قاعدة أيديولوجية بررت له، فالتبرير الفرنسي أكد على التفوق على الآخر البربري وعلى أفضلية الحضارة الفرنسية والبعد الإنساني للثقافة الغربية، وتفقو المسيحية على الإسلام¹، وهذا ما شكل مبررا للتضحية بالأدنى ليعيش الأسمى، وتم الادعاء بأن الإبادة هي وسيلة لتحسين الإنسانية وتخليصها من

كائنات ضارة لا تتفع التقدم ولا تقبل التغيير²، لقد كانت فرنسا تسعى إلى إبادة الأصلايين واستبدالهم تماما كما فعل البريطانيون في أمريكا، حيث أن عقدة استبعادها من أمريكا ظلت حاضرة في المخيال الفرنسي خلال التحضير لعملية غزو الجزائر وخلال عمليات الإبادة، ينطبق ما قامت به فرنسا خلال المراحل الأولى للاستعمار على براديغم الاستعمار الاستيطاني الذي استخدم بصفة واسعة من قبل الأكاديمية الغربية لتوصيف ما حصل في أمريكا وأستراليا ونيوزيلندا وفلسطين، يشير باتريك ولف إلى أن الاستعمار الاستيطاني هو مشروع استتصالي يهدف إلى استبدال الأصلايين، وتُشكل الأراضي المصادرة منهم قاعدة لإنشاء مجتمع جديد، حيث أن المستوطنون جاءوا ليبقوا فالغزو بيئة وليست حدث³، وبقاءهم مرهون بأن يصبحوا محلايين، فبعد أن غزت فرنسا الجزائر باشرت بعمليات إبادة حيث شهدت الجزائر خلال العقود الأربعة التي تلت الاحتلال الفرنسي 1830 إبادة ما بين 250 ألف 400 ألف جزائري، ناهيك عن أن سياسة انتزاع الأراضي وتدمير النظام الزراعي التقليدي الذي كان قائما في المرحلة ما قبل الكولونيالية، أدت إلى مقتل آلاف الجزائريين خاصة بعد المجاعة الكبرى التي شهدتها البلاد البلاد عام 1868 بعد محصول كارثي، وهو ما أدى إلى جانب حملات الإبادة إلى انخفاض عدد سكان الجزائر من 3 ملايين جزائري سنة 1830 إلى 2125000 سنة 1872⁴.

إن السعي إلى القضاء على الأصلايين كان يعتمد على خلق علاقة مشوهة بين الأصلايين وبيئته من خلال التعديل الذي يحدثه المستعمر على طبيعة المحاصيل وإدخال الفرنسيين لزراعة الكروم كانت له نتائج السلبية على خصائص التربة والزراعات وأحدثت خللا في التوازنات الكبرى البيئية والفلاحية⁵، فالمستعمر الفرنسي سعى إلى خلق عالقة كريمة بين الأصلايين وبيئته، وهو ما أشار إليه ألفرد كروسبي Crosby Alfred في كتابه "الإمبريالية البيئية: التوسع البيولوجي لأوروبا" في محاولته لفهم طبيعة العلاقة بين الإنسان

والطبيعة والتي كانت تسير دائما في دراسة تأثير الإنسان على الطبيعة دون الحديث عن العلاقة العكسية أي تأثير الطبيعة والبيولوجيا على الإنسان والتي كانت مدخلا مهما في تحليله الشهير لما قام به الأوروبيون خلال الاستعمار من استخدام الأمراض الأوروبية كوسيلة لإبادة الأصلايين. من المؤكد، أن فرنسا استعملت كذلك هذه الاستراتيجيات على مستوى التعامل مع الطبيعة -كما سبق وأشرت-، ومن الناحية البيولوجية استخدمت فرنسا الأمراض كالكليرا لمحاربة الثورات الشعبية، تشير الكتابات التاريخية إلى أن فرنسا وخلال حصار واحة الزعاطشة سنة 1849م استقدمت بعض المجندين المصابين بالكليرا وهو ما أدى إلى إصابة باقي المجندين بالإضافة إلى الجزائريين في مناطق المقاومة⁶. بطبيعة الحال، فإن تأثيرات الأمراض على الأصلايين كانت كبيرة وساهمت في القضاء على العديد منهم، ولهذا فإن الممارسات الطبية الفرنسية تصنف ضمن خانة الطب الاستيطاني الذي يهدف إلى القضاء على الأصلايين، من المفيد هنا الإشارة إلى أن استخدام الطب هي وسيلة ضمن تدخل ضمن بنية الاستعمار الاستيطاني، وفي كثير من الأحيان تُستخدم تفسيرات طبية لتبرير موت الأصلايين من قبيل أن التكوين البدني للأصلايين "فاسد"⁷.

الفشل في القضاء على الأصلايين نتيجة المقاومة الشرسة التي أبدوها، أدت بفرنسا إلى محاولة استخدام البرامج الطبية كمدخل للتأثير على الجزائريين ودفعهم للتخلي عن ديانتهم "الطب التبشيري"، لقد كانت هذه البرامج في مرحلتها الأولى أشبه بقوانين التجنيس القائمة على تخلي الجزائريين عن أحوالهم الشخصية مقابل حصولهم على الجنسية، كما كانت جزءا من المهمة التحضيرية لفرنسا؛ فالتقدم الغربي آنذاك في مجال البحوث الطبية شكل مصدر فخر وساهم في تعزيز نظرة التفوق الغربية، وقد مهد اكتشاف بعض الأدوية لعمليات التوسع في بعض الدول؛ فالكينين Quinine كان العامل الأساس الذي أتاح للرجل الأبيض غزو إفريقيا السوداء⁸، وهو ما يفسر ما ذهب إليه الطبيب أغنولي في حديثه عن تأثير عمليات

تلقّيح الأهالي حينما أشار إلى أن للطبيب تأثير سياسي ومعنوي كبير ويعد وسيلة للغزو ونشر الحضارة في الجزائر⁹، وحديثه عن التأثير السياسي لعملية التلقّيح ناجم عن أن الفرنسيين حاولوا في البداية كسب ثقة الأهالي الذين كانوا يعتمدون بشكل كامل على الطب التقليدي، حيث أن انتشار بعض الأمراض في الجزائر التي كانت ناجمة عن الانفتاح التجاري الذي عرفته البلاد خلال العهد العثماني على غرار الطاعون، أو التي نقلها الجنود الفرنسيون أو المستوطنون الذين تم استقدامهم من مختلف الدول الأوروبية، ففي وهران مثالا انتشر مرض الكوليرا في وهران عن طريق المهاجرين الإسبان إلى الجزائر سنة 1933 وهو ما خلف مقتل 1457 ضحية¹⁰. استدعى إقناع الأهالي للتخلي عن الطب التقليدي القيام بحملات توعية ضد هذه الأمراض وممارسة الحجر الصحي على السفن القادمة من وجهات تنتشر فيها الأمراض، كما تم إنشاء بعض المؤسسات الاستشفائية التي سُمح للأهالي بالعلاج فيها إلى جانب عمليات التلقّيح التي استفادوا منها، حيث شهدت الفترة ما بين 1849 و1865 تلقّيح ما يزيد عن 30 ألف جزائري في المدن الكبرى¹¹.

يمكن أن نرجع أسباب استفادة الأهالي من المنظومة الصحية الفرنسية إلى :

-الادعاء بأن فرنسا تساهم من خلال منظومتها الصحية في المهمة التحضيرية التي كانت من بين الأسباب التي رُوّجت لاحتلال الجزائر؛

-التأكيد على أنه ولأسباب إنسانية ينبغي فرض الطب الفرنسي/ الغربي، فجهل الأهالي هو الذي أدى إلى انتشار الأمراض؛

-الربط بين الطب والمهمة التبشيرية حيث شكل الطب نوعا من القوة اللينة للاستعمار؛

-الخوف من انتشار الأمراض في أوساط المعمرين الأوروبيين.

مع بداية اكتشاف الموارد المنجمية، والتحول في النمط الاستعماري الذي عرفته الجزائر من

نمط استيطاني هادف إلى استئصال الجزائريين إلى نمط كلاسيكي يهدف إلى استغلال مواردهم وقوتهم العاملة، إضافة إلى تزايد الحاجة الفرنسية المتزايدة للموارد الطبيعية في الجزائر خاصة خلال الحربين العالمية الأولى والثانية عزز الحاجة إلى التحول في طبيعة البرامج الطبية الفرنسية من برامج طبي استيطاني إلى برامج طبي إمبريالي يهدف بالأساس إلى الحفاظ على القوة التشغيلية للعمال وهذا النوع من البرامج الصحية يعتبر شكلا من أشكال التعويض عن أوجع الضرر التي سببها المستعمر، والهدف الأساسي منها هو الحرص على عدم تناقص الأيدي العاملة التي قد تنجم عن تفشي الأمراض¹². يمكن أن نوضح الانتقال في طبيعة الممارسات الطبية الاستعمارية بطبيعة المستشفيات أنظر الجدول رقم 1 التي تم إنشاؤها، ففي المرحلة الأولى اقتصر الأمر على المستشفيات العسكرية التي كانت تهدف إلى تقديم خدمات طبية للعسكريين والمستوطنين، ثم شهدت المرحلة الثانية إنشاء مستشفيات مدنية قدمت بعض الخدمات للأهالي.

الجدول رقم 01: يوضح أهم المستشفيات التي تم افتتاحها في الجزائر في القرن 19.

سنة الافتتاح	منطقة المستشفى	طبيعة المستشفى
1830	مستشفى الداوي مستشفى مايو منذ 1917 / الجزائر العاصمة	عسكري
1832	مستشفى وهران	عسكري
1835	مستشفى دوبرة / الجزائر العاصمة	عسكري
1835	مستشفى مستغانم	عسكري
1837	مستشفى قالمة	عسكري
1854	مستشفى مصطفى باشا	مدني

المصدر:

Mostéfa Khiati, Histoire de la médecine en Algérie : de l'Antiquité à nos jours, Alger : édition ANEP, 2000, p.16.

3. الاكتشافات المنجمية في القنادسة والونزة: ونموذج المدينة المزدهرة الكولونيالية.

التحول الذي شهدته منطقتا القنادسة في أقصى الجنوب الغربي والونزة في شرقي البلاد يشبه إلى حد ما حصل في أوروبا والولايات المتحدة بعد أن أدى اكتشاف مورد معدني إلى بناء مدن مزدهرة Towns Boom ، وتماما كما حول اكتشاف جيمس مارشال للذهب من واقع مدينة كاليفورنيا فقد كان اكتشاف "مومن الصادق" للفحم الحجري، حسب ما يتداوله ساكنة القنادسة دور في تحويل واقع المدينة، فقطعة الحجارة الصغيرة التي وجدها في يوم من أيام العام 1907 بينما كان يحفر باحثا عن الملح ستحول تلك المدينة الصغيرة الى مدينة عامرة¹³؛ فمومن الصادق وجد تلك الحجارة ذهب مسرعا بها الى شيخ قصر القنادسة "سيدي إبراهيم" الذي لم يعرفها بدوره وأحالها الى قائد الفرقة الأجنبية الثانية النقيب كواوفن والذي بعد أن قدمها للسلطات تبين انها فحم حجري¹⁴، بينما تزعم الرواية الفرنسية ان الجيولوجي جورج فالمو Georges Flamand هو من اكتشف الفحم¹⁵. بغض النظر عن تضارب الروايات فإن النتيجة كانت واحدة فهذه المنطقة التي لم يقبل الناس على العيش فيها بسبب ظروفها المناخية الصعبة، والذين كانوا يعيشون على قلتهم في الواحات ويقتاتون على ما تجود به الأرض وعلى رعي الغنم ويقطنون في قصر يسمى قصر القنادسة ويرجعون في شؤونهم الى شيخ القصر، وينظمون حياتهم وفق الشريعة الإسلامية، حولها الفحم الحجري إلى مدينة تنبض بالحياة، أدت إلى بناء مدينة بأكملها على بعد 1 كلم من قصر القنادسة، توافرت على كل مرافق الحياة الضرورية وتم بناء أحياء تتوافق مع مستوى العاملين: فيلات للهندسين، سكنات للعاملين، إلى جانب وسائل للترفيه: مسبح وقاعة للسينما ملعب للتنس، فندق ومركز للفروسية. كان كل شيء يدل على تحول المنطقة إلى قرية أوروبية ولكن للأوروبيين فبناء القرية بعيدا عن قصر القنادسة لم يكن بريئا فهو أمر يعكس استعلائية الرجل الأبيض والاختلاف الذي يتوجب إظهاره في كل مرة بين المجالات الحضرية الأوروبية المتطورة والفضاء الأصلي غير المتطور أو البربري كما وُصف لتبرير عملية استعمار الجزائر، وبعيدا عن التوصيفات الأكاديمية فقد وصفها أحد سكان القنادسة بأنه كان

علينا أن نذهب إليهم¹⁶، باتت هذه المنطقة قبلة للعمالة من مختلف أنحاء الجزائر وحتى من المغرب كما تم استقدام عمال من إيطاليا وألمانيا، لقد كانت شركة Oranais Sud du Houillères التي حصلت على حق استغلال الفحم بالفعل شركة متعددة الجنسيات تصدر الفحم لمختلف الدول الأوروبية وتلبي حاجات فرنسا من هذه المادة خاصة خلال فترة الحرب العالمية الثانية أو باتت دولة بحد ذاتها كما يصفها سكان المنطقة¹⁷.

لم تبدأ عملية استغلال فحم القنادسة إلا بعد عقد من الزمن من اكتشافه، فالمقاومة الشعبية التي انطلقت في المنطقة جعلت فرنسا حريصة على القضاء عليها كأولوية تسبق عملية استغلال ثروات المنطقة، هذا إلى جانب طول المدة الذي استغرقتها عملية تحليل الفحم الحجري والذي تم نقلها إلى فرنسا¹⁸. بدأت عملية الاستغلال في العام 1917 بوسائل بسيطة جدا وهي وسائل لا تزال موجودة إلى يومنا هذا في متحف القنادسة شاهدة على مرحلة اعتمد فيها استخراج الفحم على الجهد البشري فقط تحت إشراف السكك الحديدية الجزائرية أنظر الصورة 01.

الصورة رقم 1



المصدر: العمل الميداني من متحف القنادسية، 2022/09/21.

اكتشاف مناطق جديدة لاستخراج الفحم في منطقة القنادسة دفع السلطات الفرنسية لتعزيز عملية الاستغلال، حيث تم استقدام وسائل أكثر تطوراً وانتقل الاستغلال من الفضاء المفتوح إلى باطن الأرض عن طريق الأنفاق¹⁹، كان من الضروري أن تصاحب العملية إنشاء بنية تحتية لنقل الفحم فبعد أن كان يتم نقله على ظهور الجمال تم إنشاء سكة حديدية، وبطبيعة الحال، فإن اللجوء إلى حفر الأنفاق تطلب زيادة في عدد العمال وإعادة توزيعهم، بما يسمح باستمرار الإنتاج، لقد عكست عملية توزيع الأدوار داخل مناطق استخراج الفحم النظرة الاستعمارية الفرنسية؛ حيث أسندت المهام الأكثر خطورة للسكان المحليين الذين كانوا مجبرين على العمل في Le fond وفي أحسن الأحوال العمل في Le jour في حين أسندت المهام الإدارية للفرنسيين، يصف أحد العمال السابقين في المنجم ظروف العمل في المنجم بالمُزرية حيث يقول بأنهم كانوا مجبرين على اصطحاب الطعام معهم إلى داخل النفق وأنهم كانوا يقضون ساعات طويلة وفي بعض الأحيان يضطرون لقضاء ليلتهم داخل النفق في حال حدوث انهيارات، كان العمال يجثمون على ركبهم ليقوموا بعملية الحفر في منطقة تبلغ فيها درجة الحرارة في الصيف مستويات قياسية في السطح تتجاوز في بعض الأحيان الخمسين درجة²⁰، وهذا دون توافر وسائل مناسبة لحمايتهم من المخاطر، فإلى جانب حوادث العمل المتكررة وسط العمال وقع حريق داخل أحد المواقع في القنادسة في ماي 1949 أدى إلى مقتل 3 عمال، وقد أثار هذا الحادث الكثير من الانتقادات للسلطات الفرنسية بعد أن تأخرت عملية إنقاذ العمال²¹. تشير هذه الحادثة إلى بيئة العمل العالية المخاطر التي كان يعمل فيها الأهالي، فمن المؤكد أن بيئة ينتشر فيها غاز الميثان القابل للاشتعال والذي يتراكم في جيوب الفحم والطبقات المجاورة والتي قد يؤدي انفجارها إلى حوادث مميتة، يشكل العمل فيها تحدياً يومياً للموت، هذا ناهيك عن حوادث العمل التي قد تؤدي إلى بتر أطراف العاملين في المنجم²². شكلت الحوادث في المناجم دافعا للسلطات الفرنسية لإنشاء قطاع صحي في المنطقة أنظر الصورة رقم 2. كان التطبيب يهدف بدرجة أساسية إلى علاج الأمراض المُستجدة التي ظهرت نتيجة استنشاق الهواء الملوث كالسليكوز السحار الرملي وأمراض أخرى ناتجة عن العمل والعيش في مناجم الفحم الحجري. شكل التكفل بالمرضى من الأهالي نوعاً من التعويض لهم عن استغلال أراضيهم وكان يهدف إلى استمرار استغلال

العمالة خاصة وأن ظروف العمل كانت قاسية، واستمرار العمل كان أكثر من ضروري في مرحلة دمر فيها سلاح الجو الألماني معظم المناجم الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية، فالحرب حتمت مضاعفة الإنتاج وهو ما يتضح من خلال مشروع سكة الحديد المتوسط-النيجر بين منطقتي بوعرفة في المغرب و القنادة وقد تم مد خطوط الانتاج بين منجمي جرادة والقنادة، حيث كان الفحم الحجري القنادة وجرادة المغرب ضروريا لاستمرار آلة الحرب الفرنسية.

الصورة رقم 2



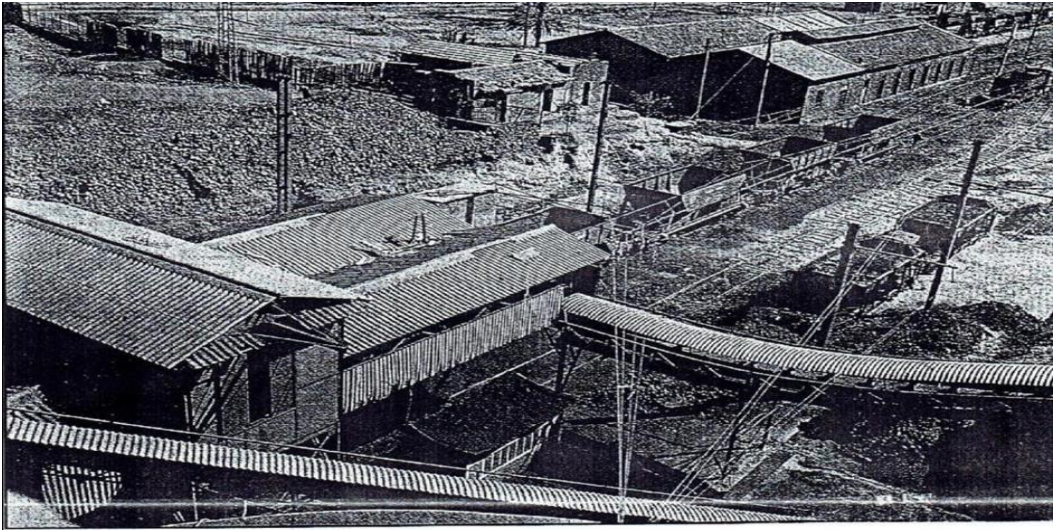
المصدر: العمل الميداني، متحف القنادة، 2022/9/22.

كما الحال في القنادة كانت الوزنة عبارة عن منطقة زراعية تعتمد على زراعة الحبوب والرعي، وقد حولها اكتشاف الحديد سنة 1878 إلى مدينة تستقطب العمالة من كافة أنحاء الجزائر وحتى من البلدان المجاورة. يشير سكان المنطقة حسب الروايات الشفهية المتداولة بينهم إلى أن تسمية المنطقة مستوحاة من اسم ابنة مكتشف الحديد²³. بدأ الاستغلال الفعلي في 1922، وذلك بعد قرابة العقد من الزمن من إنشاء شركة مناجم الوزنة التي شرعت في تهيئة مناجم الوزنة للاستغلال منذ إنشائها عام 1913 أنظر الصورة رقم 3 وهو ما أدى إلى توافد عمالة من فرنسا ومن البلدان المجاورة بالإضافة إلى الجزائريين الذين

توافدوا من كافة أنحاء البلاد، وبطبيعة الحال فإن الأشغال التي كانت في البداية تتم بطرق بدائية وتتطلب جهد كبير تم إسنادها للجزائريين في حين تولى الفرنسيون الإدارة.

تزايدت وتيرة الاستغلال المنجمي بعد إدخال المكننة بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى غرار القنادسة عكس تقسيم الفضاء الاستعماري العرقية الفرنسية؛ حيث توزع العمال على منطقتين سكنيتين، كانت الأولى خاصة بالعمال الأوروبيين، بينما قام العمال الجزائريون ببناء أحياء سكنية خاصة بهم على غرار: حي البياضة، مخيم بجاية، وحي المقبرة في ضواحي الونزة وقد ضمت الأحياء أكواخا آوت الآلاف من الجزائريين²⁴. في سبيل ربط بين المنجم وميناء عنابة تم إنشاء خط سكك حديدي مكهرب والذي يعد الأول من نوعه في الجزائر، ورغم أن منجم الونزة بدوره قد كان سببا في إصابة العديد من عمال المناجم بمرض السليكوز فقد استفاد الأهالي من بعض الخدمات التي كانت موجهة بالدرجة الأساسية للأوروبيين وكان يستفيد منها الأهالي بدرجة أقل.

الصورة رقم 3: منجم الونزة خلال فترة الاستعمار.



المصدر: بوشارب عبد السلام، تبسة معالم ومآثر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، 1996،

4. استجابة الأنظمة الصحية للهشاشة في المرحلة الما بعد كولونيلية:

رغم ظروف العمل القاسية والتأثيرات الأيكولوجية التي أحدثها استغلال المناجم في المرحلة الكولونيلية، فإنه خلق نوعا من الرفاه استفاد منه سكان المناطق المنجمية، وذلك بغض النظر عن الصعوبات التي تواجهها في تحديد معنى الرفاه بسبب كونه معنى عابر للتخصصات يتضمن شق اقتصادي يتعلق بالأساس بمؤشرات الدخل ويرتبط أكثر بالمفهوم الكنزي لدولة الرفاه الذي يؤكد على التشغيل الكامل، في حين يرتبط هذا المفهوم من الناحية الاجتماعية بتحقيق الغايات المجتمعية لاسيما التدابير التي من شأنها الحد من ظواهر مثل الفقر، والبطالة، والأمراض، والتفاوت الاجتماعي²⁵، وبالنتيجة يمكن أن نتبنى مفهوم أكثر شمولاً يتضمن الشروط الأساسية لحياة كريمة، وتصبح الصحة والعمل الكريم والمسكن اللائق شروطاً أساسية ضمنه، وعموماً فللرفاه جانبين الأول هو الرفاه المادي الذي يرتبط بالدخل، بل وبالموارد المادية بصورة أعم، والمدلول الثاني للرفاه يتعلق بالعلاقات والرعاية الشخصيتين²⁶. يمكن أن نلاحظ أن المناطق المنجمية في القنادسة والونزة أدت إلى تشغيل عدد معتبر من أبناء المدينتين، وهو ما سمح لأبناء المنطقة أن يتمتعوا ببعض مظاهر الاستقرار المادي التي كانت استثنائية في تلك المرحلة، حيث يؤكد "محمد" أن بعض سكان القنادسة ممن يشتغلون أعوان رقابة تمكنوا من اقتناء سيارات²⁷، إلى جانب هذا فقد تمتعت المنطقة بخدمات الكهرباء ويؤكد سكان المنطقة أن القنادسة هي أول منطقة استفادة من خدمات الكهرباء المنزلية في الجزائر، أما في منطقة الونزة فقد استمرت مظاهر الرفاه إلى مرحلة ما بعد الاستقلال وتأمين منجم الونزة ولكن ومع استحواذ الشريك الأجنبي على عمليات الاستغلال المنجمي في الونزة بدأت مظاهر الهشاشة تلاحق المنطقة. من المهم جداً أن ندرك أن توفر مناصب الشغل في القطاع الصناعي في مرحلة الاستعمار كان في حد ذاته يعتبر اعتاقاً من حالة البؤس التي كان يعيشها الجزائري، فالقراءة التاريخية لواقع السيورة

الكولونيلية التي قامت على انتزاع الأراضي يوضح أن تفكيك المجتمع الزراعي في الجزائر والذي تم عبر تفتيت القبيلة لم يعقبه تشكل بنية جديدة لامتصاص العاملة المحررة²⁸، حيث شكل اكتشاف المناجم أولى بوادر امتصاص تلك العاملة بعد سنوات من البطالة وما أعقبها من مظاهر الهشاشة الاجتماعية، فالعمل المنجمي على قسوته كان فرصة لتحقيق الانعتاق من الحاجة وحتى ما عاناه عمال المناجم من أمراض مزمنة كلفت الكثير منهم حياتهم أو كلفتهم بتر بعض أعضائهم ، فإن استفادتهم وأهاليهم من النزر اليسير من الخدمات الصحية ومن التعليم ومن بعض مظاهر الحياة الأوروبية كانت كفيلة بأن تجعل من إيجابيات العمل المنجمي أكثر من مثالبه .

على اختلاف المصير الذي انتهت إليه المنطقتين فإن النتيجة كانت واحدة وهي الانتقال إلى الهشاشة التي تعبر بصفة عامة عن الوضعيات العكسية للرفاه كعدم توافر شروط الصحة و العمل الكريم والسكن اللائق، فمنطقة القنادسة توقف فيها نشاط استغلال منجم الفحم الحجري بصفة تدريجية إلى أن تم إغلاق المنجم تماما وهو ما نقل المنطقة من مرحلة الرفاه إلى مرحلة الهشاشة، فبعد أن استفاد السكان بصفة جزئية من مختلف المرافق على غرار مستشفى القنادسة الذي تم بناؤه خلال مرحلة استغلال الفحم، واستفاد منه سكان المناطق المجاورة، حيث توفر هذا المستشفى على قاعة للجراحة ومختلف أجهزة التشخيص، لكن بعد نهاية الاستغلال المنجمي ونهاية الاحتلال الفرنسي لم يعد هناك الكادر الطبي القادر على تشغيل المستشفى وبات سكان المنطقة مضطرين للتنقل لبشار لتلقي العلاج خاصة في الأمراض التي يعجز عن التكفل المركز الصحي المتواجد على مستوى القنادسة، لقد كانت مرحلة الاستغلال المنجمي مرحلة ذهبية من عمر القنادسة حسب تعبيرات أحد المبحوثين: "فبمجرد توقف الاستغلال المنجمي استحالَت القنادسة إلى قرية صغيرة يقطنها عدد قليل من السكان، حتى أنها كادت تتحول إلى منطقة مهجورة في ستينات القرن الماضي²⁹ .

على عكس القنادسة التي توقف فيها الاستغلال المنجمي بعد الاستقلال، استمر الاستغلال المنجمي في الونزة بعد تأميمه من قبل الدولة التي احتل التصنيع صدارة اهتماماتها في مرحلة ما بعد الاستقلال حيث كان الرهان على مصنع الحجار للحديد في عنابة كبيرا، وهو ما انعكس إيجابا على عمليات الاستغلال التي كانت تتم بوسائل تكنولوجية حديثة والتي ساهمت بشكل أو بآخر في التخفيف من وطأة ظروف العمل وهو ما سمح باستمرار بعض مظاهر الرفاه، خاصة وأن عمال المنجم الذين تجاوز عددهم 8 آلاف عامل كانوا يتقاضون رواتب ممتازة إضافة إلى استفادتهم من امتيازات السكن، مجانية الإيجار والكهرباء والماء، إلى جانب تكفل شركة مناجم الونزة بترميم السكنات المتضررة من عمليات التفجير³⁰، بالإضافة إلى الاستفادة من الضرائب التي تفرض على التنقيب المنجمي من ضرائب منجمية وضرائب على التلوث³¹، بيد أن ظروف العمل تدهورت بشكل ملحوظ خاصة بعد أن أجبرت الظروف الاقتصادية الصعبة التي مرت بها البلاد في العشرية السوداء الحكومة على بيع جزء معتبر من أسهم سیدار لشركة ارسلور ميتال التي أشرفت على عمليات الاستغلال المنجمي، سعي الشركة الهندية إلى استنزاف الاحتياطي المنجمي بأقل التكاليف أدى إلى عدم تجديد المعدات والتجهيزات التي يعود أغلبها إلى السنوات الأولى من الاستقلال³²، يصف أحد العمال ممن التقى بهم إحدی القنوات المحلية إثر إضراب قام به العمال في المنجم بأنه في الحقيقة لا يوجد استثمار أجنبي وإنما استعمار³³. ظروف العمل في المنجم صعبة للغاية يضطر فيها العمال للعمل لساعات طويلة ويتعامل بعضهم مباشرة مع الصخور الجبلية ويكونون عرضة للتفجيرات ورحى الصخور وهو ما يهدد حياتهم في حالة حدوث انهيارات أو يؤدي في حالات أخرى إلى بتر الأعضاء، يروي العمال بعض حوادث الانهيارات التي تصيب زملاءهم وتؤدي بحياتهم في غالب الأحيان حيث تستمر عمليات البحث عنهم لساعات طويلة لحين العثور عليهم³⁴، ناهيك عن أن التعرض للغبار والضوضاء التي تتسبب فيها التفجيرات المتكررة من أجل استخراج الحديد، وتؤدي في الكثير من الحالات إلى التأثير على

أعضاء الأذن الداخلية، أما مرض السليكوز فيبقى من أهم الأخطار التي يواجهها عمال المناجم، حيث يتم سنويا تسجيل العديد من الإصابات بين العمال أنظر الجدول رقم 2 ورغم كون هذا المرض غير معدي إلا أنه مرض مزمن يؤثر بشكل كبير على حياة المريض.

الجدول رقم 2: يوضح عدد المصابين بمرض السليكوز حسب إحصائيات مصلحة طب العمل.

السنة	عدد المصابين
1992	39
1993	09
1994	25
1995	17
1996	08
1997	07
1998	05
1999	02
2000	23
2001	25
بداية 2002	24

المصدر:

Taleb Narsis Souad, " Contribution à l'étude d'impact de l'exploitation du gisement ferrifère de la mine de l'Ouenza sur l'environnement ", Faculté des Sciences, Département de Biologie: Université de Badji Mokhtar, Annaba, 2012, p.14.

إن الاستغلال المنجمي يؤدي إلى إحداث خلل بين الإنسان وبيئته وهو خلل يؤدي في نهاية المطاف إلى عدم اكتمال شروط الصحة، وبعيدا عن التعريفات التقليدية التي تشير إلى أن الصحة هي مجرد الانتقاء البيولوجي لمرض، فالصحة حسب منظمة الصحة العالمية تتمثل في حالة المعافاة الكاملة بدنيا ونفسيا واجتماعيا³⁵، ولهذا فإن البيئة تشكل عاملا أساسيا

في اكتمال العافية. إن هذا الاختلال يتجلى بوضوح في حالتي الدراسة، ففي الوزن يتسبب الغبار في تلوث البيئة بسبب تلوّث المياه السطحية، مما يؤثر بشكل مباشر على الغطاء النباتي، حيث أشارت دراسة قدمتها الباحثة سعاد طالب إلى تأثير الاستغلال المنجمي على النبات بفعل تأثيرها على مستوى استيعاب الكلوروفيل، كما أشارت إلى أن الغبار الناعم يكون له تأثيرات كبيرة سواء على الساكنة أو النبات³⁶، ناهيك عن التأثيرات الواضحة سواء على مستوى الصحة العمومية وحتى على مستوى النسيج العمراني.

في القنادسة لا يذكرنا بمرحلة استغلال الفحم الحجري سوى المغسلة التي تصادفك بمجرد دخولك للمدينة أنظر الصورة رقم 4 والتي لا تزال شامخة لتذكر سكان المنطقة بتلك المرحلة وإلى جانبها أكوام جبلية من الفحم التي باتت جزءاً من يومياتهم، حتى أنهم بنوا سكناتهم أمامها وأطفالهم باتوا يعتبرونها مقصداً للعب كما أخبرني أحد الشباب ممن ترعرعوا وألفوا اللعب أمام الأكوام وفي بعض الأحيان اللعب بتلك الأكوام³⁷، أما السلطات المحلية فقد أقامت ملعباً لكرة القدم أمام أكوام الفحم الحجري.

لا يزال بعض سكان المنطقة ممن بلغوا من العمر عتياً يتذكرون أيام العمل في المنجم فعمي العلال الذي بلغ من العمر 92 سنة والذي يعاني من السليكوز يتحدث عما عاناه في المنجم والإصابات التي تعرض لها في ساقه، ولكن المفارقة أنه يتحدث بحسرة عن تلك المرحلة التي وجد فيها مصدراً للدخل لم يتوافر لأبنائه من بعده³⁸، فأبناء المنطقة يسعون وراء رزقهم خارج القنادسة بينما لا يزال أهاليهم يعانون من تبعات الاستغلال الفحمي فبقايا الفحم تتطاير إلى المنازل مع كل عاصفة رملية تهب، ورغم زيارات بعض مسؤولي قطاع البيئة للمنطقة فإن إزالة الأكوام بقيت قيد الدراسة ووضعت العديد من الخطط لأجل إزالتها أو تغطيتها دون أن تجد طريقها للتطبيق، حتى أننا خلال توجهنا إلى مسؤولي قطاع البيئة في ولاية بشار اعتقدوا أن ما نقوم به يدخل ضمن نطاق الدراسات العديد التي أجريت من أجل إيجاد حل لهذه المشكلة.

لقد فاقم الفشل التنموي والذي أدى إلى تكريس ثنائية المركز المهيكل والأطراف العاصمة والمدن الكبرى والأطراف المهمشة المدن الداخلية والحدودية، إلى تزايد حدة

الهشاشة وجعل الساكنة بالنتيجة تتعايش مع مظاهر تشكل خطرا على الصحة العامة، كما أن المنظومة الصحية عكست هذا التقسيم فالخدمات الصحية تتركز في المركز بينما لا يستفيد الهامش من خدمات صحية بنفس الجودة ولهذا فليس من المستغرب أن يشير الساكنة إلى المرحلة الاستعمارية بحسرة المستفيد من خدمات الصحة الإمبريالية التي شكلت بالنسبة لهم خدمات ذات جودة بالمقارنة مع ما يقدم لهم حاليا من خدمات لا تبلغ في الغالب مستويات طموحاتهم في الغالب.

الصورة رقم 4: توضح محطة غسل وتنقية الفحم الحجري وتوسع النسيج العمراني أمام أكوم الفحم.



المصدر: العمل الميداني.

إن استجابة الأنظمة الصحية في مرحلة ما بعد الاستقلال تكاد تتطابق مع التعامل الكولونيالي مع الأمراض التي كانت ناجمة عن اختلال العلاقة بين الإنسان وبيئته، فالأنظمة الصحية لم تسع إلى تصحيح العلاقة بين الإنسان وبيئته بالنظر إلى التأثيرات السلبية التي قد تطل الساكنة والسعي إلى التقليل قدر الإمكان من تداعيات مثل هذه الاختلالات، ولهذا فإن النظرة البيولوجية القاصرة في كثير من الأحيان للمرض قد تؤدي إلى عدم القيام بإجراءات احترازية تضمن استدامة الصحة، ناهيك عن أن اعتبار الأمراض الناجمة عن هذه

الاختلالات من اختصاص طب العمل تتضمن إنكارا ضمنيا لحقيقة أن هذا الخلل هو ما يؤدي إلى إصابة الساكنة بالأمراض، حيث يحصره ضمن دائرة العمال التي هي بطبيعة الحال الأكثر تعرضا لمخاطر الإصابة بالأمراض الناجمة عن هذا الاختلال.

5. خاتمة

أثر التحول في بنية الاستعمار الفرنسي من استعمار استيطاني إلى استعمار كلاسيكي إلى التأثير على البرامج الطبية، التي كانت في البداية تستعمل كوسيلة للقضاء على الأصليين في حين أن الطب الإمبريالي حاول النظر إلى الأصليين كأحد عوامل الإنتاج وحرص على استمرارهم ضمن دائرة الإنتاج خاصة وأن الثروات الطبيعية في الجزائر كانت عاملا حاسما في استمرار آلة الحرب الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية .

شكل نمو المدن المنجمية في القنادة والونزة فرصة لاستفادة الأهالي من بعض مظاهر الرفاه، والتي ارتبطت بشكل كبير بالاستغلال المنجمي وانتهت مع انتهاء هذا الاستغلال في القنادة وانتقلت المنطقة من الرفاه إلى الهشاشة وفي الونزة وبالرغم من استمرار الاستغلال المنجمي فإن مظاهر الرفاه النسبي لم تعد حاضرة كما في الماضي، يرتبط هذا الأمر بمجموعة من العوامل لعل أبرزها الخلل الهيكلي الذي أفرزته النماذج التنموية التي جعلت الاستفادة من الخدمات تتركز في المركز ولا تشمل الهامش وهو أمر يتزايد خاصة في المناطق الحدودية، ناهيك عن أن النظرة البيولوجية للمرض والتي تقتصر على الانتقاء البيولوجي للمرض دون الحرص على انتقاء عوامل المرض يفسر عدم إيلاء الأهمية الكافية للمخلفات المنجمية كمسببات للمرض، وجعلها تقتصر في معالجتها لهذه القضية على العلاقة بين العامل ورب العمل باعتبار أن هذا الأمراض التنفسية التي تنجم عن المناجم ومخلفاتها هي أمراض تدخل ضمن أمراض طب العمل.

إن الاختلال بين الإنسان وبيئته والذي خلفه الاستعمار الفرنسي يدخل ضمن ما يسمى بالعنف البطيء الذي يؤثر على الإنسان من خلال التأثير على بيئته وإن كان العنف المباشر يؤدي إلى الموت فإن العنف البطيء تستمر تأثيراته لسنوات طويلة وقد يؤدي أيضا إلى الموت.

6. شكر وعرفان

تم تنفيذ هذا البحث من خلال دعم المجلس العربي للعلوم الاجتماعية برنامج "الصحة وسبل المعيشة في المنطقة العربية: الرفاه والهشاشة والنزاع" بدورته الثالثة 2022-2023 الوكالة السويدية للتعاون الإنمائي الدولي.Sida

7. الهوامش والمراجع

1. Lahouari Addi, Colonial Mythologies: Algeria in the French Imagination, (Beirut: American University of Beirut, 1996), p.98.
2. Olivier Le Cour Grandmaison, coloniser, exterminer sur la guerre et l'État colonial, (Paris: Fayard 2005) p.196.
3. Patrick Wolfe, "Settler Colonialism and the Elimination of the Native", *Journal of Genocide Research*, 8(4), p.381.
4. Olivier Le Cour Grandmaison, op., cit., p.272.
5. إيف دوتيه، "من اقتصاد الجزائر المستعمرة 1830 - 1954"، صحيفة السفير، شوهد: 2025/9/15، في: <https://bit.ly/496bIAY>
6. شافو رضوان، "الطب الاستعماري الفرنسي في مواجهة الأمراض والأوبئة بالجزائر"، *الحوار المتوسطي*، المجلد الثالث عشر، العدد 2، سبتمبر 2022، ص 466
7. آرنولد دافيد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، (الكويت: عالم المعارف 1998)، ص 135.
8. نفس المرجع السابق، ص 26
9. صليحة علامة، "الطب الفرنسي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية (أداة للهيمنة وحقل للتصوير)"، *مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية*، المجلد 4، العدد 4، 2018، ص 141
10. شافو رضوان، مرجع سبق ذكره، ص 460.
11. المرجع السابق، ص 463.
12. آرنولد دافيد، مرجع سبق ذكره، ص ص: 155-156.
13. محمد ليمونصي، مقابلة شخصية، القنادسة، 2022/09/19
14. مصطفى علوي، من ذاكرة القنادسة: الفحم الحجري، الجزائر: دار كنوز الحكمة، 2018، ص 46.
15. Etienne Dalmasso, « Une cité minière au Nord-Sahara: Béchar-Djedid », *Méditerranée* 3(1) 1962, p. 25
16. مختار سلطاني، مقابلة شخصية، القنادسة، 2022/09/24،
17. محمد ليمونصي، مقابلة شخصية، القنادسة، 2022/09/19
18. مصطفى علوي، مرجع سبق ذكره، ص 45.
19. نفس المرجع السابق، ص 68.

20. محمد العلال، مقابلة شخصية، القنادسة 2022/9/22
21. وثائق أرشيفية في متحف القنادسة، 2022
22. مختار سلطاني، مقابلة شخصية، القنادسة 2022/09/24
23. عباس حسان، مقابلة شخصية، الوزنة 2023/10/23
24. عبد الوهاب شلال، "أوضاع العمال المسلمين الجزائريين في مناجم الوزنة: 1913-1966"، (ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة، 2003-2004)، ص. 26.
25. ماري دالي، الرفاه، (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016)، ص 19.
26. نفس المرجع السابق، ص 145.
27. محمد ليمونصي، مقابلة شخصية، القنادسة، 2022/09/19
28. الهواري العدي، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي الاجتماعي 1830-1960، (بيروت: دار الحدث للطباعة والنشر والتوزيع، 1983)، ص 124
29. محمد ليمونصي، مقابلة شخصية، القنادسة، 2022/09/19
30. إيمان عويمر، "عمال المناجم في الجزائر "منسيون تحت الأرض"، إندبننت عربية، تاريخ الولوج: <https://bit.ly/4bFJ0Hf> 2023/05/05
31. حبيس راضية، "تأثير المنجم على نمو وحالة العمران مدينة الوزنة"، (مذكرة ماستر: قسم تسيير التقنيات الحضرية، جامعة أم البواقي، 2017)، ص 48
32. إيمان عويمر، مرجع سبق ذكره.
33. تبسة: "عمال منجم الوزنة يدخلون في إضراب مفتوح"، قناة الشروق على اليوتيوب، تاريخ الولوج <https://bit.ly/4jProhq>، في: 2023/4/15
34. عبد الله زرقاوي، عليان سمية، منجميو تبسة يرفضون التنازل عن النقاعد النسبي في أشغالهم الشاقة، الخبر، تاريخ الولوج: <https://bit.ly/3EvVLt1>، في: 2023/12/15
35. منظمة الصحة العالمية، "دستور منظمة الصحة العالمية"، تاريخ الولوج: 2023/12/15، في: <https://bit.ly/4aMEdoB>
36. Taleb Narsis Souad, op. cit. p.16.
37. مقابلة شخصية مع حسين عمير، القنادسة 2022.10.1.
38. مقابلة شخصية مع محمد العلال، القنادسة 2022.11.9.